الدكتور جمال الأتاسي

إشتراكيتُنا أخلاقيّة

البعث والإشتراكية - الكتابات الأولى

2



منشورات الطليعة 1989

في سبيل مجتمع عربي موحّد حُرّ و ديمقراطي



اشتراكية أخلاقية

للدكتور جمال الاتاسي

في البدء كانت المادة ولا شيء غير المادة ، وكانت الحركة من طبيعة المادة ، تقول الشيوعية هذا القول ولا تقف عنده ، انما لتؤكد ان الكائنات والمجتمعات والحضارات والمبدعات انما نشأت كلها عن تلك الحركة الداخلية للمادة ومن صيغة جدلية هي معنى رابطة كل هذه العناصر ببعضها. فهذه الحركة الخلاقية للمادة هي أصل وأساس كل شيء في الوجود وعنها نشأت الحياة متطورة على مر الازمان بادئة من أبسط الموجودات ومن أضيقها فسحة ونشاطاً لتصل لأرقاها وأعلاها درجة من الوعي والادراك . فمن رابطة الاشياء بالمادة ومن صلتها بحركتها تتعين كل الحقائق وتتبين .

« فالوسط الطبيعي الجغرافي يعين قوى الانتاج ، هذه القوى تعين بدورها العلائق الاقتصادية ووسائل الانتاج ، لتكون هذه بدورها أيضاً الهيئات الاجتماعية والطبقات ، ومن هذه العلائق الاقتصادية بذاتها تتكون أسس الحياة النفسية للجماعات ، كما تتجلى في مختلف المؤسسات والافكار والمثل عندما تنعكس على صفحة الوعي الانساني » :

عن الروابط الاقتصادية تنشأ الطبقات الاجتماعية وكل طبقة تمثل نظاماً اقتصادياً في طريق التطور ، وعن تملك وسائل الانتاج الاقتصادي ينشأ تنازع المصالح الذي يرتكز في صراع طبقي بين مستثمر ومستثمَر ، ان كل ما يعيش اليوم من قيم انسانية وديانات ومن أفكار وتشاريع انما ترافق سيطرة طبقة اجتماعية معينة وترتبط بوجود هذه الطبقة وبوعيها لمصالحها ، فالفكر كالأخلاق ليس الا بنياناً اضافياً ملحقاً بالبنيان الاساسي للجماعة أي مرتبطة بالهيكل الاقتصادي الذي يكون البنيان الاول والاساسي الذي يقوم عليه كل شيء . فالاخلاق والافكار كالدولة وكالآلة بيد أقلية حاكمة تضمن لها سيطرتها على الأكثرية الكادحة واستثمارها لها . وما دام البنيان الاقتصادي يقوم لصالح طبقة هي الاقلية ، وما دامت وسائل الانتاج تصبح ملكاً لهذه الاقلية المتنفذة والتي تتمثل اليوم في الرأسماليين مالكي الآلة وما دام رأس المال يصبح بذاته قوة وسلطة ويشرى به النفوذ والرفاه ويستثمر به جهد الآخرين ، فوسائل الانتاج

والحالة هذه فيها تقييد للانسان . هي قيد للكادح ، قيد للعامل المستثمر وكل ما يلحق بهذا البنيان الاساسي ، أي كل القيم الاخلاقية القائمة وكل العقائد والافكار والتشاريع تصبح قيداً لطبقة الاكثرية وحجراً على حرية الانسان وحائلاً دون تمتعه بقيمة الانسان الكلي . الانسان الحر السعيد .

ليس للاخلاق من قيمة انسانية ، ان لها قيمة طبقية فهي المسيطرة لانها بنيان ملحق بالاسس الاقتصادية القائمة لصالح هذه الطبقة . أما طبقة الاكثرية . طبقة العمال الكادحين فهي لا تقوم على أحكام أخلاقية من نوع آخر بل تقوم على قانون حتمي للمصير التاريخي . ان العامل مرتبط بالآلة . وتطور الآلة هو الكفيل بتكتيل قوى العمال وتوجيهها في طريق الشيوعية ، فالحرب الطبقية قائمة والثورة مأساة لا بد منها وبها تنتهي مآسي الانسانية بل بها يبدأ تاريخ الانسانية . فالعامل مهيأ بشروط الآلة وبتصنيع العالم وبتكتل رؤوس الاموال في أيد محدودة . مهيأ للثورة والظفر ، واخلاق الثائر هنا لا تحدد ولا تعين بقيم . انها سلوك العامل وكل ما يجعل الطبقة العاملة تربح المعركة : انها سلوك المناضل ونضاله سياسي محض .

هذا اذاً ما تقوله الشيوعية : ان القيم الأخلاقية ستار تخفي وراءه الطبقة الرأسمالية كذبها وتبرر سيطرتها ، وكرد على هذا يكون الكذب مشروعاً وكذلك الارهاب والتضييق طالما انه لخدمة الطبقة الكادحة في نضالها ضد الرأسمالية

ولدعم الجمهوريات السوفياتية الشعبية الديمقراطية في سياستها وخصوماتها .

ان فضيلة اليوم فضيلة بورجوازية وخلق العامل هو خلق المناضل ويستمده من ضرورات نضاله . فكل شيء مباح في سبيل هزم الرأسمالية . ان تاريخ البشر حتى اليوم هو تاريخ الصراع الطبقي ، نزاع بين مستثمر ومستثمر ، فهو ليس بالتاريخ الانساني ، التاريخ لا يبدأ انسانياً الا بعد دكتاتورية الكادحين وعندما يتحقق النظام الشيوعي . فتاريخ الانسانية يبدأ تاريخاً اشتراكياً ويبدأ بعد ضرورة محتومة هي المأساة العالمية وثورة العمال ، يبدأ عندما تصبح وسائل الانتاج مشاعاً ولا حاجة لنا اليوم لوضع الأسس الاخلاقية لذلك المجتمع ولا لتحديد أهدافه ومراميه ؛ ان الروابط فيه ستكون روابط اقتصادية طبيعية انسانية وعنها سينتج وضع انساني وسلوك انساني وخلق انساني فكل محاولة لربط الجماعة أو الحركة العمالية بقيم اخلاقية جديدة هي محاولة بورجوازية تميل بالفكرة الاشتراكية نحو الخيالية والتأمل ، انها اشغال للعمال عن السياسة والنضال .

هناك اشتراكية واحدة على حد التعبير الماركسي ، هي الشيوعية ، هي المصير التاريخي للبشرية . ان قانون الوجود الوحيد والذي كشف عنه هيجل وطبقه ماركس على تطور الجماعة هو الذي يقول بذلك . وهو القانون الجدلي الذي يقول بأن كل موضوع وكل نظرة وكل وضع انما

يخلق أمامه ما هو ضده أو سلبه ومن صراع هذين الضدين تنتج الحركة والتقدم وتأتي النتيجة المحصلة لها والمؤلفة من هاتين القوتين اللتين تميل أولاهما للاستقرار في وحدتها الاولى وتتقدم الثانية تجذبها في طريق معاكسة لا تقوم على الوحدة بل على عكسها أي على التفرق والتباعد والتمايز وتأتي المحصلة فتكون الوحدة بعد التفرق وتعيد الاستقرار في وحدة أرقى. هل تستطيع ان تحدد في ذهنك صورة لحياة الانسان الابتدائية قائمة على الوحدة والاستقرار ، انها صورةالبشرية في حياة المشاع الاولى التي لا يقوم فيها تمايز ولا فروق ولا طبقات ، اذ لا يقوم تملك ولا ثروة منقولةولا تزاحم من حولها ، ومن هذه الوحدة الاولى انشق الافتراق .. فالانسان ابن المادة المتحركة ، هو ابن الطبيعة ومن صلته بها نشأت علاقة هي وسيلة العمل والانتاج ومنها بدأ التفرق والاختلاف وضاعت الوحدة في فروق ومنازعات وتمايزات.

في البدء كانت وحدة بلا تمايز ومن بعدها ضاعت الوحدة ليوم التفرق والاختلاف والاستثمار ،والعداءوالحروب والاستعمار ، فمن بعد المساواة حل عدم المساواة ، وبعد التشابه حل التغاير ، والاستقرار لن يعود الا في الاشتراكية هذه الاشتراكية التي تعني المرحلة الثالثة في قانون الوجود الأزلي ، مرحلة تعود فيها الوحدة الشيوعية الاولى ولكن مع احتفاظها برقيها وبنوع من التمايز خاص قوامهترقي وسائل الانتاج لتأمين رفاه البشر وسعادة الافراد .

فالوحدة الأولى هي المبدأ او الموضوع والنظرة والتفاوت الذي جاء من بعده هو ضد هذا المبدأ ، هو سلبه ،وتأتي الوحدة الاخيرة وهي سلب السلب لتكون المركب الكلي الجديد في الوحدة والمساواة .

هذا هو المنطق الجدلي الحق وبحسب الشيوعية انها لم تبق من بعد هذا زيادة لمستزيد . فهي قد أعطت قانون الحركة في المادة وفي ما انشق عنها من بنيان الحياة ، انها العلم والعقل والمنطق الجدلي القويم . واحكام العلم دائماً أحكام صحة أو خطأ — هذا حقيقي وهذا قريب من الحقيقي ، وهذا غير حقيقي ، هذا هو أقرب للواقع وهذا أبعد ..

هذا هو العلم واحكامه أحكام كمية تؤيدها التجربة والاختبار ، فليس هناك من أحكام كيفية ولا من أحكام قيمية — لا نقول هذا أحسن من هذا وهذا أفضل من ذاك ولا أجمل ولا أعلى ولا أرفع ،بل هذا أصح وهذا أكبر — وهذا كل العلم .

لا نناقش هنا الفلسفة المادية العامة للشيوعية اذ لا يتسع هنا مجال البحث والموضوع يتعلق بامكان قيام فكرةاشتراكية على أسس أخلاقية جديدة . لنقتصر الآن على تلخيص النظرة الاشتراكية الغير أخلاقية في جملة هي قول الشيوعية بأن حكم اليوم حكم البورجوازية والاخلاق أخلاقها والمثل أوهامها كما هي عدتها للتسلط والمحافظة والثبات . الاخلاق

هي بنت الطبقة والآلة ، أما أخلاق البروليتاريا فهي أخلاق الثورة ، هي أخلاق سياسية تقوم على كسب المعركة والوصول للحكم بشتى الوسائل ، وأخلاق المجتمع الشيوعي ليست أخلاقاً وقيماً بل روابط ضرورية بين الانسان والانسان تقوم على تبادل الانتاج وعلى التعاون في استثمار الطبيعة بوسائل الانتاج لا هذه الاشتراكية التي تسميها الماركسية « اشتراكية علمية » وتسمي كل ما عداها بالاشتراكية الطوبائية أو الخيالية ، ولن أسجل هنا أمام هذا الاتجاه الاتجاهات المعاكسة والمعادية ،من تلك التي تتسمى بالروحانية على وجه عام ولا الاتجاه الاخلاقي الديني القائم على حقيقة ثابتة سابقة للوجود وهي مصدر القيم والقوانين حتى ولن أضع أمامها النظريات والمبادىء التي تقوم عليها المجتمعات الحديثة والتي تتسمى بالديمقراطية ، اذ أننا نلتقي مع الشيوعية ومع معسكر الاشتراكية والثورة والصراع الطبقي ولكن لنعطي مفهوماً جديداً للاشتراكية وتعبيراً آخر للصراع الطبقي والثورة وبصورة عامة لنعطي مفهوماً آخر للمصير التاريخي بل سأعرض هنا للمشابهة صورة أخرى للاشتراكية ليست غريبة عن الشيوعية ولا جاهلة بها بل هي من صميمها ويمثلها أحد رواد الماركسية وقد انشق عنهاوليس الا لازمة فكرية واخلاقية عاناها في تجربته الشيوعية الخاصة ، فالشيوعية تعاني منذ نشأتها أزمة فكرية واخلاقية .. أي ازمة انسانية

ان الشيوعية قد حملت لنا حقائق أكيدة في نقدهـا للاخلاق القائمةعلى الاستثمار والاستعمار والاستبداد والانتقاص من كرامة الانسان واعطتنا عدة في محاربة النظام الرأسمالي القائم وأظهرت لنا مناطق الضعف فيه ، كما صورت لنا كيف ان التفكير المجرد والفكر التأملي الحالم والتقاليـد الجامدة والقيم السحرية الغامضة لا تكون الا قيداً للانسان وعلة لعبوديته .. ولكنها لم تبحث القيمة الايجابية للفكر والاخلاق والدين وحتى للاسطورة في نشوء المجتمعات وتكوّن الحضارة ، بل لم تبحثها كبنيان ملحق في الماضي وكقيد في الحاضر. وسنرى كيف ان الشيوعية في سلبيتها هذه لا تحمل للانسانية أية ضمانة . ان الاخلاق البورجوازية يجب ان تنهار ولكن ليس في الشيوعية ولا في أخلاقيتها ضمانة تهديم البورجوازية وتحرير الانسان ، انها بنفيها كل قيمة انسانية للتاريخ في الماضي تنكر على الانسان انسانيته فبالرغم من قصور القيم الاخلاقية السائدة فانها قصورهـا أصبح يقاس بقيم أرفع وا كمل فان انسانية اليوم تحمـل بعض انسانية الغد بل صورة لها تتحرك نحوها . ان وجود قيم اخلاقية جديدة تقوم على عدم الاستثمار وعلى الشعور بالظلم وعلى وعي مفهوم جديد للعدالة والحق هي التي ساعدت الشيوعية وتساند كل حركة اجتماعية جديدة .

لننتقل الآن الى تفصيل ما أجمله هنري دومان في خاتمة كتابه عن « بسيكولوجيا الطبقة العاملة والاشتراكية » عن

المبادىء الاشتراكية التي أقرها مؤتمر « الاشتراكية الاخلاقية » الذي اقيم في هوبنهايم بألمانيا عام ١٩٣٨ .

ان نقطة البدء هنا لا الطبقة والمادة ولا وسائل الانتاج بل الانسان ووعي الانسان وحريته وارادته . والاشتراكية لا يراها في حتمية خارجة عن الانسان بل يعرفها على انها « اتجاه الارادة الانسانية نحو نظام اجتماعي عادل » هـذه الارادة الاشتراكية تؤمن بأن مطاليبها حقيقية وعادلة لانها تفهم الروابط الاجتماعية وتتطلع الى المؤسسات الاجتماعية من خلال حكم اخلاقي يحمل في وعيها له صفة الكمال والشمول . فالعقيدة الاشتراكية انما تقوم اذن على تصميم وجداني واع ، تقوم على تصميم يتطلع به الانسان الى غاية ونهاية ، وبذا يضع دومان الحد الاول للاشتراكيةالاخلاقية من انها تقوم بالاساس على ارادة الانسان الواعية لا على الغريزة الطبقية القائمة على تفريق المصالح وتنازعها . ومن انها (أي الاشتراكية) بجوهرها غائية أي مثالية ، بمعنى أنها تعيش في نفسها مثلاً للمجتمع الصحيح العادل وتتحرك بالارادة الانسانية .

ان هذا لا يتنافى أبداً مع التفكير العلمي والتفسير السببي للحوادث الاجتماعية في دراسة المصير التاريخي ولكن هـذا النوع من الدراسة . وكما قام بها علماء الاجتماع وخصوصاً ناحية منها بعنايته كارل ماركس . ان كان لها ان تلقي نوراً على شروط الوجود الاجتماعي وعلى العوائق التي تقوم

عثرة وحائلاً دون تحقق الارادة الاشتراكية ، فليس بوسعها وهي لا تقوم على أي حكم أخلاقي أي على حكم قيمة أن تعلل القوة التي تتحرك بها هذه الارادة الانسانية وان تعلل الايمان بالغاية الاشتراكية المثلى وبمستقبل الانسانيـــة الارقى .

وعلى هذا الاساس نرى ان المحاولات التي ترمي لتحويل العقائد والفكر القائمة على أساس السببية الاجتماعية وتفسير حوادث التاريخ الى عقائد فكر تقوم على أساس الاهداف الاجتماعية والغائية التاريخية لن يكون نصيبها الا الفشل .

واذا كانت الاشتراكية ارادة انسانية ، فمن اين تستمد هذه الارادة دوافعها وحركتها ؟ ان هذه الدوافع لا تمكن ان نقصرها على ما يعطينا المجتمع الرأسمالي بوضعه الاستثماري من علل ومبررات كما لا نحصرها في نضال طبقة محدودة أو نعلقها بمصير هذه الطبقة وبوصولها للحكم (دكتاتورية بروليتاريا مثلاً) هذه الارادة انما تنبع من الايمان ببعض المبادىء والقيم التي تعطي الاتجاه نحوها ، ومن ثم تحققها . لتطور التاريخ معنى وغاية .

لنثبت هنا بعض المبادىء التي جاء عليها دومان في بحثه :

الايمان بأن القيم الحيوية أعلى من القيم المادية : فهي التي تعين قيمة الانسان بوصفها تعبيراً عن كل نشاطه وفعالياته التي يتفرد بها كانسان وعلى هذا فتملك الوسائل المادية لا يبرره الا استخدامه لتأييد الحاجات الحيوية

الأخرى ولارضائها . فالفعالية الاقتصادية يجب ان توجه هذه الغاية ، والاشتراكية تقوم على تنظيم الفعالية الاقتصادية لرفع مستوى العمل الانساني كله ولترقية انتاج الانسان العام وكل ذلك بغية ترفيه الانسان ولخدمة الصالح العام لا لتأمين مصلحة فرد أو جماعة والعمل لنفعهم .

الايمان بأن كل فرد مسؤول عن مصير كل الانسانية : ومسؤوليته بمقدار وعيه وحريته أي بمقدار ما يكون لارادته من سلطان على سلوكه ، وعن هذا يأتي ان سلوك الافراد وتنظيم المؤسسات الاجتماعية يجب ان يستوحى من الصالح العام وان الدوافع التي تحرك العاطفة الانسانية للجماعة هي أعلى من دوافع المصلحة الشخصية ، هي أعلى منها في قوتها وقدرتها وفي ما تعود به من خير ونفع .

الايمان بان للتاريخ معنى واتجاهاً نحو غاية : وبأن المعنى الانساني للمصير التاريخي هو في اتجاهه الى تحقيق الرسالة الملقاة على عاتق الانسانية ، رسالة تعني أعلى تطور ممكن في الانسانية وفي تحقيق الخير والحق والجمال .

الايمان بأن مسؤولية جميع البشر واحدة أمام هـــذه الرسالة المشتركة : وذلك بحق ميلادهم على هذه الأرض في وضع متماثل ، وطالما ان مسؤوليتهم واحدة فهـــم متساوون إذن في الحقوق ومتساوون في الكرامة الانسانية .

هذه هي النزعات الاساسية التي يستند اليها بنيـــان الاشتراكية الاخلاقية عند « دومان » ننتقل من بعدها إلى

ما جاء به من وصف للمطالب الاشتراكية وللحقوق الأنسانية التي تؤكدها بالدرجة الأولى :

حق الحياة : أي حق الانسان بحياة كريمة تليق بانسانيته وحقه بثمار جهده المشروع . حق العامل في قيمة ما ينتجه جهده والحماية الشرعية لهذا الحق (ولكفايته لتأمين حياة كريمة لائقة) ضد كل المحاولات التي تتذرع بوسائل وحقوق أخرى لاستثمار جهد العامل ولاستخدام الاشياء المنتجة بعمل الآخرين والتي تتذرع بوسائلها (التي ورثتها أو كسبتها) لدعم سلطتها وسيطرتها على العمال والعمل .

حق الأطفال بتربية تعدهم لحمل اعباء هـذه الحياة وليكونوا في المستقبل أعضاء عاملين أصحاء . حق الضعفاء والقاصرين والعاجزين عن العمل بحماية المجتمع لحياتهم ولكرامتهم الانسانية .

حق الانسان في الاستقلال وفي أن يكون لشخصه كيان قائم بذاته : يجب أن يهيأ لكل انسان المجال الحيوي لتكامل تطوره ولتحقيق كل فعالياته . والاشتراكية هي التي تعطي لجميع الأفراد ، وفي كل مجتمع من المجتمعات. فرصاً حياتية متكافئة تضمنها النظم وقوانين المؤسسات ، وتدعمها ليكون كل عضو ناشطاً وليساهم مساهمة فعالة في تقرير المصير المشترك .

للجميع نفس الحقوق . والحرية لكل الناس في تكوين آرائهم وفي اتجاهاتهم ، وحرية التعبير عن هذه الاتجاهات

والآراء والسير بها لتثبيت دعائم الحياة المشتركة وكل ذلك بصورة تمنع استخدام أناس كوسائل لتأمين مصالح آخرين أو لتأمين أفضلية مادية أو سلطة ما يمنع كل استثمار ويستخدم كل الوسائل والممكنات لجعل كل سلطة اجتماعية وكل هيئة على مختلف مراتبها ومهامها بين الجماعة ، التعبير الصحيح الصادر عن الارادة الحرة الواعية لاعضاء هذه الجماعة .

إن قوة هذه المبادئ وشمولها وحيويتها تجعل من الاشتراكية الحاجة الأكيدة والمطلب الحق الصريح الذي يتوجه لجميع الناس ، فان لها استجابة خاصة من طبقة العمال الكادحين ، فالاستثمار والظلم إنما يستبدان بالطبقة العاملة وينالان منها بالدرجة الأولى ، ونضال العمال للخلاص مما يعذبهم وينال منهم مباشرة ونضالهم في سبيل مصالحهم الحيوية مع كونه جهداً خاصاً مشروطاً بوضعهم كطبقة مستثمَرة فهو أيضاً شرط ضروري وتحررهم مطلب أساسي يسبق كل المطاليب والحقوق الاشتراكية الأخرى اللاحقة ، لأن الحرية والوحدة والمساواة في السياسة والاقتصاد والاجتماع إنما يستوجب قبل كل شيء ازالة هذه المراتب الطبقية والفروق القائمة . ولكن لضمان تأدية هذا النضال الطبقي للأهداف الاشتراكية الحقة وللحرية ولضمان استمرارها ولضمان طابعها الانساني المطلق ، يجب أن تقوم منذ البدء بربط هذه الدوافع القائمة على المصلحة وعلى الرغبة في

الحكم والسيطرة التي قد تنجم عن الوضع الخاص بطبقة العمال ، وبالدوافع والنزعات الانسانية العامةالتي تقوم على أحكام أخلاقية وعلى عاطفة الشعور بالحق وبالواجب . فجهد الطبقة العاملة للخلاص من قصورها ومن عجزها الاجتماعي إنما هو جهد خاص بها وعليها أن تستبسل في سبيله بمعنى أن الطبقة العاملة لتدرك قيمة الحرية الاشتراكية ولتكون قادرة على حمل مسؤولياتها يجب ان تريدها هي من نفسها وان تعيها في نضالها وان تغزوها وتجهد وتكابد لنيلها . وهذا لا يعني احجام الطبقات الشعبية الأخرى عن المشاركة في هذا النضال . إن تحرر الطبقة العاملة هو في صالح الجماعة كلها كمجموع وعلى الجميع أن يدعموه وأن يساهموا فيه مساهمة حقيقية وفعالة لأنه سبيل خلاص الانسانية ، ولكن الطبقة العاملة يجب أن تعي مسؤوليتها هي بنفسها وأن تعي أيضاً رابطة قضيتها بالقضية العامة ليكون نضالها مشتركاً مع النضال الشعبي العام . فليكون جهد هذه الطبقة في سبيل تحررها مدعوماً من بقية الناس يجب على هذه الطبقة ان تظهر هي بنفسها أيضاً عدالة قضيتها وصحة أهدافها وإلى انها لا تقوم على مصلحة اشخاص ولا تهدد المجموع باستثمار واستئثار من نوع جديد ، فأساس النضال الاشتراكي يجب أن يكون الكائن الانساني في العامل أي انسانية العامل واتجاهه لا يقتصر على تحرير العامل من السيطرة المادية للرأسمالية فحسب بل

تحريره من السيطرة النفسية والخلقية لهذه الرأسمالية القائمة على أسس أخلاقية باطلة وعلى قيمة المراتب الاجتماعية والفروق الطبيعية .

ومجمل ما سبق انه بدلاً من أن تستنبط الاشتراكية ومبادئها من الصراع الطبقي ، تكون الفكرة الاشتراكية بذاتها هي المحرضة للصراع الطبقي وهي الدافعة للتحرر ولتحقيق الأهداف والقيم المثلى للانسانية عن طريق ايمان الناس بقيمها وأهدافها . فهذه الصفة الاخلاقية والحقوقية التي تتميز بهما مطالبنا الاشتراكية ، انما تقوم هي بذاتها كفكرة تستقطب وعي الجماهير بدور محرك وفعال . وهذا هو عنصر القوة الاشتراكية الاخلاقية إذ انها تحرك دوافع انسانية أخرى إلى جانب دوافع الحاجة والاعتبار الاجتماعي والمصلحة وارادة الرفاه والامن . فهذه الدوافع الأخيرة ، أي القائمة على المصلحة الشخصية والمادية قد ترتضي لها جهازاً رأسمالياً إذا ضمن لها هذه المصالح وقد تقنع بوضع أصلح وبوضع يضمن لها بعض الحرية والرفاه . فبطرحنا للمسألة الاشتراكية على هذا الشكل الانساني العام وبعرض أفكارها ومطالبها على هذه الصورة إنما نعطيها طابعاً أكمل وأصح ونعطي لحركتنا دفعات أعمق وأعنف ، فبها يزداد الشعور بالمسؤولية ويتكامل الوعي وتنمو روح التضحية .

فالحركة النقابية مثلاً تصبح اجدى وأكثر فعالية واندفاعاً إذا ما قامت على مثل هذه الأسس ، فبدلاً من

أن تقوم على تفسيرات واعتبارات اقتصادية قوامها مصلحة العمال كبائعين في سوق العمل يمكن أن تستند إلى مبدأ آخر هو أن العمل الانساني لا يمكن أن يكون بضاعة للمساومة — يمكن أن تطالب بزيادة قوة الشراء عند الجمهور مثلاً كشرط سابق لزيادة الانتاج — وبالمطالبة بنوع من الحياة لائق وكريم كتعويض عن طرائق العمل الاقسى وللوقاية من التهديد بالبطالة الذي قد ينتج عن تعميم الاتجاه العقلي والجهد الفكري عند الناس . وهكذا فالمبادئ الأخلاقية والحقوقية توجه النضال النقابي إلى غايات فعلية أيضاً كحق العمال في العمل المبهج والمنمي للملكات أي في عمل يستحق أن يقوم به الانسان، ولجعل الصناعة ديموقراطية أي موجهة بارادة العمال وذلك بأن يكون لهم الحق في المساهمة بتعيين الشروط الاجتماعية والفنية للعمل على مختلف أنواعه وعلى مختلف درجات الانتاج .

والحركة السياسية نفسها عندما تستند إلى مثل هذه المبادئ والدوافع فانها لا تزداد إلا قوة ومضاء كما تتمكن وحدتها وتتوضح غاياتها ، ونرى بالفعل :

١ — بتفريق الفكرة الاشتراكية عن المذاهب الدينية وعن النزعات المعادية للدين باعتبار ان الاشتراكية تقوم على القيم المشتركة بين كافة الناس ولصالحهم كلهم ، يمكن أن نأتي للحركة الاشتراكية بعناصر من العمال مثلاً كانت

حتى اليوم معادية للاشتراكية بسبب وساوسها الدينية أو عصبياتها .

٢ — باقامة المطالب الاشتراكية الحقة على مبادئ وأسس عامة تتعلق بالمجموع وتتجه لخدمة الصالح العام وتنادي اليها وعي الجميع ، فانما بذلك تزداد قوة اشعاع المبادئ الاشتراكية وانتشارها خارج طبقة العمال الصناعيين لتتناول بالخاصة الفلاحين والمفكرين .

٣ — إن المهمة السياسية الأولية في الاشتراكية والتي تعبر عن ضرورة سريعة وأكيدة ، هي النضال في سبيل السلام ولنزع السلاح ولرفع الحدود والعوائق الاقتصادية ، وهذه المهمة لا يدعمها ويجعلها أقرب وأهون إلا اثارة مثل هذه الدوافع التي يغذيها تمرد الشعور الاخلاقي عند الناس ضد الحروب وضد الروح العسكرية .

٤ — ويربط الحركة الاشتراكية بهدفها الذي هو في ترقي الشخص الانساني وفي أن يكون له كيان مستقل وقائم بذاته إنما نهيئ ونساعد على تقدم المؤسسات الشعبية كلها ، ويقدم ذلك ضمن مراقبة فعالة يقوم بها المنظمون على المنظمات والمؤسسات لضمان الانسجام والترقي الدائم ، وليتم العبور إلى الديموقراطية الاقتصادية والاجتماعية .

٥ — ويتوسع مفهوم الاشتراكية وتعم غاياتها ومراميها بصورة تجعل فيها تبديل كل أسس الحضارة بدلاً من أن تكون مجرد تطور أو تجديد في بعض المؤسسات الاجتماعية .

ولتكون الثورة انقلاباً عاماً في النفسية والاخلاق وفي مراتب القيم التي تستند اليها الساطة النفسية للرأسمالية أي في قلب القوة النفسية للمجتمع الرأسمالي ، إنما تستدعي الحركة الاشتراكية قوى ، ومحركات أصيلة وأكثر مضاء في تهديم الرأسمالية وفي محاربتها كبنيان اقتصادي وكبنيان خلقي ونفسي . وفي هذا التوجيه النضالي العام ضمانة أيضاً ضد كل تحول بورجوازي أو تخلق بالخلق البورجوازي تمكن أن يعرض إذا ما اشبعت الحاجات وارضيت مطالب المصلحة والتي لم تكن وليدة هذا الوسط الرأسمالي .

٦ - إذا ما كانت الفكرة الاشتراكية غائية ، فلا يعني ذلك انصرافها عن الواقع القائم وعن فهمه والعمل فيه : بل انما تستند أيضاً إلى دوافع تستمدها من الظروف القائمة ومن الشروط الخاصة بالافراد والجماعات . فالاشتراكية ليست مجرد اعداد للتحقيق الاشتراكي الكامل ، بل تتداخل في حوادث الحياة اليومية وفي الحاجات العارضة لتعطيها حلولها وطريقها . انها لتتداخل حتى في الفعليات الانسانية الجزئية لتخرج بربطها بالحركة العامة وبغايتها إلى اعطاء طابع مطلق لكل نواحي النشاط الانساني . ويكون في ذلك توضيحاً للاشتراكية في حقل النضال والعمل والتطبيق كما يكون محكاً لها وتجربة - ويوضح هنا « دومان » الفائدة العملية من ايجاد حلول مباشرة واصلاحات تسير بنا نحو الاشتراكية . الغاية في انها تكون عدة

لنا في مقاومة نزعة التخاذل والتشاؤم التي تتوالد عند الجماهير من شكوكها من امكانية الحصول على حلول سريعة ، ويرى «دومان» ان ذلك اجدى من القاء كل الأهداف على عاتق ثورة عالمية تاتي بغاياتها للمستقبل .

وينتهي أخيراً إلى أن هذه النظريات والتعليلات التي يقيم عليها الأسس الاشتراكية الاخلاقية كفيلة بجعل النضال في سبيل الاشتراكية نضالاً أقدر على وعي غاياته ومراميه ، وبها تكون وسائلها النضالية أمضى وأقوى في كفايتها وممكناتها ، كما يتسع مجال تحقيقها .

* * *

لقد أعطينا هذه النظرة الاشتراكية الاخلاقية الكثير من الحقائق كما وسعت أمامنا آفاق البحث الاجتماعي لتعطينا عدة أخرى لدعم القضية الاشتراكية ولتنمية المشاعر الانسانية ولكنها كأختها الماركسية تبقى في كثير من نواحيها استجابة لأزمات أوروبية متشابهة .

فاذا ما أفادتنا كنظريات وكحلول وكتجارب فان مشاكلنا الخاصة وأوضاعنا الاجتماعية والاقتصادية والقومية المختلفة عن مثيلاتها في أوروبا تفرض علينا أيضاً حلولاً خاصة : كما ان شعباً مجزءاً وغير حر في تصريف أموره وتوجيه مقدراته كشعبنا العربي يتطلب منا اثارة دوافع أخرى في النضال الشعبي الاشتراكي ، كأثارة فكرة الوحدة القومية والتحرر وانشاء كيان متين للأمةالعربية .

إن فكرة الطبقة والنضال الطبقي تأخذ معنى خاصاً في نزعتنا الاشتراكية العربية ، فليس عندنا من تطور صناعي كاف لوجود طبقة عمال تستطيع التأثير الفعال في تبديل المجتمع وقلبه ، والوعي للمصالح الطبقية وللحقوق الانسانية قاصر وابتدائي عند الطبقات الكادحة ، بل ان هـــذه الطبقات نفسها في تأخرها ورجعيتها هي من دعائم الحكم الاقطاعي والاستثماري في بلادنا ، ولا بد من التوجه اليها لاحداث انقلاب فيهـا نفسها . اننا بفكرتنا الاشتراكيـة نضع مفهوماً جديداً للنضال الطبقي وللعمل الاجتماعي القومي ونربطها بفكرتنا الأساسية فكرة « الجيل الجديد » (١) ونضعها في جهازها العملي الذي هو الحـــزب ونوجهها إلى غـاية هي البعـــث العـــربي .

١٩٥٠

---

١ راجع مقالة « الجيل العربي الجديد » في كتاب ميشيل عفلق : في سبيل البعث .

